حقيقة المعية الإلهية ونحوها

ما هى حقيقة المعية الإلهية ونحوها بين وثنية التشبيه وقدسية التنزيه ؟ .

الجواب : من المعلوم فى عقائد القوم رضى الله عنهم أنهم يؤمنون بكل ما نسب الحق عز وجل إلى نفسه من غير تكييف ، لا على الوجه المعروف فى الحوادث ، فكما أن ذاته لا تشبه شيئاً من الذوات فصفاته تعالى لا تشبه شيئاً من صفات المخلوقات ، ولا فعله يشبه فعل الخلق وهذا أمر متفق عليه ليس بين المسلمين فيه خلاف .

والفعل إذا نسب للحق تجرد عن الزمان ، فيريد ويشاء إذا نسبت للخلق دخلها الحال والاستقبال ، فإذا نسبت إلى الحق زال منها الزمان فلا حال ولا استقبال لأنها نسبت إلى خالق الزمان ، فهى إرادة مطلقة أزلية أبدية غير مقيدة بالزمان .

وكذلك الظرف إذا نسب للحق زالت منه الظرفية لأنه تبارك وتعالى خالق الظروف والأمكنة فكان قبل الأمكنة بلا مكان وجل سبحانه من أن يتغير ويتبدل ، فلم يكن سبحانه فاقداً لكمال حتى يفيد من وجود المخلوقات ذلك الكمال ، (**سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ**)[1] .

فإذا سمعت قوله تعالى : (**أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ**)[2] فالأصل فى لفظة (**فِي**) أنها إذا نسبت إلى ما يجوز عليه الظرفية كانت بمعنى الظرفية ، وإذا نسبت إلى من لا يجوز عليه الظرفية انتفت عنها الظرفية فكانت بالمعنى المنزه اللائق بالمنزه سبحانه ، ومتى عرفت أن ذاته تعالى ليست بجسم ولا تشبه الأجسام فى سائر صفاتها أيقنت أنها ليست بالمعنى الجسمانى وإنما هى بمعنى آخر يليق بالذات الأقدس ، وعرفت أن قوله صلى الله عليه وسلم : ((**يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَمَاءِ الدُّنْيَا**)) ، وقوله تعالى : (**وَجَاءَ رَبُّكَ**)[3] هو نزول ومجئ إلهى بعيد عن كل وصف فى النزول والمجئ المعروف من الأجسام .

---

١ ــ سورة الصافات ، الآية ١٨٠ .
٢ ــ سورة الملك ، الآية ١٦ .
٣ ــ سورة الفجر ، الآية ٢٢ .

ومن الناس من أثبت للحق سبحانه المعية المعروفة فى الجسمانيات ، وهذا يلزمه الحلول الجسمانى ومثبته لا خلاف بين علماء المسلمين فى كفره ، ويعتقدون أنه سبحانه وتعالى حال فى كل مكان كحلول الماء فى العود والروح فى الجسد وهذا ضلال بين ، وهو سبحانه كان قبل كل شئ بلا مكان وهو على ما عليه كان منزه عن التغير والتبدل وأن يحل فى مكان أو يتجسد أو يتحد بمخلوق .

وأراد آخرون أن ينزهوه عن هذا القول فوصفوا فوقيته على كل شئ بالوصف الجسمانى ، فحيزوه فى ناحية من الكون فوقعوا فيما فروا منه ، ويقولون : قال فلان هو فوق كل شئ بذاته ومع كل شئ بعلمه ، وهل علمه ينفصل عن ذاته ؟ وهل " بذاته " وردت فى آية من كتاب الله أو حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ لم ترد ، ولماذا قلدوه فى العقيدة ؟ وهل فى العقائد تقليد ؟ .

والأصل فى ذلك أنهم لم يقطعوا بأن الحق منزه عن الجسمية ، ولو نزهوه عنها لسقطت لوازم الجسمية من خيالاتهم .

وبيان ذلك أنك إن فرضت أن فوقية الذات على العرش هى الفوقية المعروفة فيما نشاهد فلا يسعك إلا أن تربط بينها وبين المجئ والنزول اللذين نسبا للحق فى الكتاب والسنة ، فتقول : إنهما كذلك المجئ والنزول المعروف لنا فيما نشاهد .

فإذا جاء ونزل إما أن تقول : إنه مازال على الفوقية المعروفة ، فتكون قد نفيت النزول المعروف ، فإنه لا يوجد شئ من الأجسام يكون فوق شئ فينزل ولا يزال على فوقيته ، فكأنك قلت : ينزل ولا ينزل ، وهذا هو الجمع بين الضدين وهو محال .

أو تثبت المجئ الحقيقى المعروف فتكون قد أزلت عنه الفوقية .

فإن أولت المجئ والنزول وقلت بالفوقية المعروفة فقد افتضحت ، وإن أولت الفوقية وقلت بالمجئ المعروف فقد افتضحت .

وإنما يلزم التناقض من ظن أن فوقيته سبحانه الفوقية الخلقية ونفى عنه الفوقية الإلهية التى لا تشبه بوجه فوقية الخلق ، وظن أن المجئ هو المجئ الخلقى ونفى عنه سبحانه المجئ الإلهى المنزه ، وهذا هو الضلال البين الذى يشبه تناقض الكفار القائلين : ثلاثة هى واحد وواحد هو ثلاثة فى وقت واحد .

ولا ندرى ما الذى دعا عقولهم حتى حملوا النصوص على الفوقية التى تجامع فوقية الخلق وقد نفاها الشرع والعقل ، مع أن الباحثين فى المادة حتى الملاحدة بدأوا يغيرون رأيهم فى الأجسام المادية ويردونها إلى أصل غير الأجسام ، وقد قرر بعضهم أن الأثير نصف مادى ، فالمؤمنون أولى بترك الجمود الجسمانى .

والمجئ والفوقية والمعية المادية مكيفة ، أما غير المادية فلا يتطرق لها كيف وهذه هى السلفية الصحيحة ، ولماذا لم يحملها هؤلاء على الفوقية المنزهة التى تفارق فوقية الخلق ولدينا النصوص التى تعين ذلك ، وكذلك المجئ وغيره ، وبذلك يخرجون من التناقض الذى هو آية ضعف التفكير ، وديننا هو الدين الواحد الذى لم ينفك دين غيره عن التناقض والتهافت .

والتحقيق العلمى فى ذلك أن الحق سبحانه ليس بجسم فما نسب إليه ليس بجسمانى ، فهى فوقية ليست بجسمانية ونزول ليس بجسمانى ومجئ ليس بجسمانى ومعية ليست بجسمانية .

وقوله تعالى : (**وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ**)[٤] ، أما الإحاطة الحادثة فهى كإحاطة السوار بالمعصم ، والإحاطة الإلهية منزهة عن أن تشبه الإحاطة الحادثة .

وقرب الحق من عباده ثابت (**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**)[٥] ــ أقرب إليهم من أنفسهم فإنه سبحانه قيومهم ، لا يشاءون إلا أن يشاء ، هو الذى يتصرف فيهم كيف يشاء ولا حول لهم ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ـ القرب المنزه عن جميع صفات القرب الحادث .

---

٤ ــ سورة البروج ، الآية ٢٠ .

٥ ــ سورة ق ، الآية ١٦ .

سبحانك أين كنت : أى حيث كنت ولا مكان ، وأين تكون كما كنت ولا مكـان ، وحـديث الترمذى أنه سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أين كان ربنا قبـل أن يخلـق الخلـق ؟ قـال : ((**كان فى عماء**)) ، والعماء غيب ، وقد فسره السلف : أى ليس معه شـئ ، وهـو الموافـق لمـا جاء فى الأحاديث الصحيحة ، فليس هناك أى جمع بين ضدين ولا نقيضين .

ومن الجهل المركب أن يقول بعض الضالين : إما أن يكون داخل الكون أو خارجـه ، ويـزعم الجاهل الكاذب على ربه أن نفيهما معاً وصف له بالعدم ، وهو منتهى الغباء وهو دليل على أنـه مجسم ضال فإن ذلك لا يلزم إلا فـى التجـسيم ، فإننـا ننفـى عنـه سـبحانه دخولـه فـى الكـون الدخول الجسمانى وننفى عنه سبحانه خروجه عن الكون الخروج الجسمانى ، ونثبت له سبحانه الفوقية الإلهية والقرب الإلهى والإحاطة الإلهية المنزهة عن الصورة الجسمانية بسائر أوصافها مـن حلول واتحاد وتداخل وامتزاج ومكان ومسافة ، فإن ذاته منزهة عن الجسمية ولوازمها ، فوصفه منزه عن ذلك كله ، ونسلم الأمر لله حقاً ونفوضه له صدقاً لا تفويض المنـافقين الـذين يحرمـون التقليد فى الفروع وهم مقلدون فى العقائد لقوم لا يجدون غضاضة فى مخـالفتهم فـى الفـروع ، فيا سبحان الله ، أولئك الذين يظهرون التفـويض زوراً ويبطنـون التجـسيم الـوثنى الـذى جـاء الإسلام بتحطيمه .

واعلم أن من لم تزل آثار التجسيم من قلبه فمازالت آيـات الوثنيـة فيـه ، فإنـه سـبحانه لـيس كمثله شئ من جميع الوجوه .

آمنا بما أنزل الله على مراد الله ، وهذه هى عقيدة السلف الصالح قاطبة لا تكييف ولا تشبيه.

محمد الحافظ التجانى

هذه المقالة نشرت فى مجلة طريق الحق السنة ١٧ العدد ١٢ الصادر فى ذو الحجة ١٣٨٧ هـ الموافق مارس ١٩٦٨ م .

ونشرت فى مجلة المسلم التى تصدرها العشيرة المحمدية بمصر إجابة على سـؤال الـسنة ١٨ العـدد العاشـر الصادر فى جماد أول ١٣٨٨هـ الموافق يوليو ١٩٦٨ م .